

هل كان الحافظ ابن رجب صوفيًا؟!

الكاتب

علي عبد العزيز الشبل



منهج

الحافظ ابن رجب الحنبلي

في العقيدة

تأليف

علي بن عبد العزيز بن علي الشبل

عفا الله عنه وعن والديه ومشايخه والمسلمين

تقديم أصحاب المعالي :

١ - الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

٢ - الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

٣ - الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع

دار العاصمة

للنشر والتوزيع

تصوف الحافظ ابن رجب

في البدء لا بد من العطف على معنى التصوف، إذ هو في الأصل من مفردات الزهد والورع، ولهذا تنوعت عبارات العلماء فيه، ثم ما طرأ في أصله ـ وهو الزهد ـ من المحدثات والبدع، بل والزندقة أضفى على التصوف معنى شرعيًّا خاصًّا يعكس ذم العلماء له وتحذيرهم منه، ومن أهله.

وإذا نظرنا إلى ابن رجب الحنبلي رحمه الله وعرضنا على حاله مصطلح التصوف، نجده يتناقض معه قولاً وفعلاً وحالاً.

وقد وصف بعض الناس الحافظ ابن رجب بالمتصوف، حتى إنه عرف به في بعض الجهات؛ وسبب هذا الوصف ما أشرت إليه آنفًا من العلاقة المتصورة بين التصوف والزهد.

ولكن ها هنا لا بد من تقييد تلك الدعوى؛ لأن هذا الإطلاق في حق الحافظ ابن رجب وأمثاله فيه شبهة كبيرة.

ولهذا أقول إن اتهام الحافظ، ووصفه بالتصوف ـ والحالة هذه ـ لا يخرج عن أمرين.

أحقهما: أنه عن جهل وقلة علم في الحافظ، وفي التصوف المذموم؛ لأنه على أحسن الحالين يدل على الفهم السطحي لكلام

الحافظ، ونقوله عن بعض متقدمي الزهّاد من مُعظِّمي الصوفية كأبـي سليمان الداراني وابن أدهم والجنيد وأمثالهم. وهذا هو وجهة الأكثر من واصفي الحافظ بالتصوف.

والثاني: أنه صادر عن غرض وهوى مؤدَّاه القدح فيه وفي عقيدته ومنهجه، حيث حاولوا عسف بعض عبارات الحافظ إلى هذا المنحى. وهؤلاء ــ والحمد لله ــ قلَّة، وغرضهم مكشوف، وأمرهم إلى الله فهو حسيبهم وكافيهم.

هذا والواقف على كلام الحافظ ابن رجب في موضوع البحث في كتبه يراه يدور على أمر هام هو التزهيد بالدنيا والترغيب عنها بدار الآخرة وبرضوان الله، باتخاذ أسلوب مخاطبة القلوب لا الشهوات والجوارح. وهذا في حدّ ذاته مقصد شرعي من مقاصد الشريعة العامة.

لهذا كثر كلامه عن أحوال القلوب، ووجوب تزكية النفوس، وترقيقها لترقّى إلى منزلة الصديقين وأولياء الله المقرّبين، وليبلغ العبد أعلى مراتب الإيمان وهي الإحسان بدرجته الأولى أن يعبد الله كأنه هو يرى الله.

وهو اليقين التام بهذا الموقف، مع قلَّة الواصلين إليه.

فكان رحمه الله يصوغ ذلك بأسلوب لطيف روحاني مجرب، أتى إليه عن طريق تجربة واقعية وممارسة عملية لهذا الأسلوب في وعظه ودروسه العامة وفي رسائله، وقبل ذلك في أحواله وحياته.

فجاءت أكثر مصنفاته الوعظية على هذا النهج، حتى مصنفات المسائل الاجتهادية في الفقه وغيره والتي فيها تحقيق وسبر للأدلة

والأقوال، لم تخل من هذا المنهج، فكان غالبًا ما يذيلها بتلك اللفتات الزكية، والعبارات الندية في الوعظ ومخاطبة القلوب.

وفي هذه المناسبات تراه ينقل أقوال وأحوال كبار الزهّاد من صالحي القرون الثلاثة المفضّلة وقصصهم ونوادرهم من أمثال أيوب السختياني (١٣١هـ)، ومالك بن دينار (١٣٠هـ)، وإبراهيم بن أدهم (١٦٢هـ)، والحسن البصري (١١٠هـ)، والفضيل بن عياض (١٨٧هـ)، وابن المبارك (١٨١هـ)، والجنيد (٢٩٧هـ)، والإمام أحمد (٢٤١هـ) وأمثالهم.

لأن كلام هؤلاء وأحوالهم أبلغ ـ في الحقيقة ـ في التأثير؛ لأنه صدر عن تجربة وعن اختصاص، وقبل ذلك عن صدق مع الله وإخلاص وتجرّد.

ولعل مما سبب للحافظ مثل هذه الدعوى استخدامه للمصطلحات الشائعة عند متأخري الزُّهَّاد ـ أو قل المتصوفة ـ في القرون الأربعة المفضلة الذين وجد في آخرهم أنواع مذمومة ومنكرة من الشطحات، وهذه العبارات نحو: أصحاب الحقائق، والمكاشفات، وخواص المحبين والعاشقين، والمنامات النورانية، وأهل المعرفة الحقيقية.

مما هو محل احتمال ومورد إجمال يتطرق إليه مجال تلك الدعوى، ولكن هذا على أبعد أحواله خطأ من الحافظ وتجوز في القول لا يراد منه المعنى المتبادر عند أولئك، يدل عليه سياق كلامه الذي ترد فيه تلك المصطلحات وقواعد منهجه الرادَّة للجنوح البعيد في تلك المجاهل التي يسلكها مدعو الحقائق والمحبة وعشق الإلـه.

ومنهج آخر من منهاج الحافظ في هذه المسألة هو أنه إذا نقل عن بعض الزهّاد ممن غلّبوا جانب العبادة والذوق على العلم، حتى وقعوا في أخطاء وبدع سلوكية أو انحرافات، أدت بهم إلى نوع من الشطحات، نتيجة للجهل بعلم الرسول ﷺ الذي أورثه أمته، كما وقع لذي النون المصري، والبسطامي، وبشر الحافي، ورابعة العدوية، ومن هو أشد منهم، فالحافظ ينقل عنهم بعد أن ينتقي من كلامهم الحق والصواب، وتؤيده النصوص، ولا يسترسل معهم في نقل كل أقوالهم، وجميع ما عندهم مما يتضمنه الخطأ والبدع والضلال. ومثال ذلك على النوع الأول الذي ينقله الحافظ: ما نقله عن ذي النون المصري في كتابه «لطائف المعارف» مسألة الشوق إلى لقاء الله وتمني الموت لذلك، قال: «قال ذو النون: كل مطيع مستأنس وكل عاصي مستوحش»[1]. اهـ.

وعلى ذلك يجب مراعاة هذه الضوابط:

١ ــ نقل الحافظ لتلك الجمل من أقوالهم لا يعني بالضرورة تزكيتهم مطلقًا أو تسويغ أخذ جميع ما جاء عنهم؛ إذ الميزان موافقة ما صدر عنهم لقواعد الشرع وحيثياته مما جاء في كتاب الله أو سنَّة رسوله ﷺ وما قبله جماهير السلف الصالح من المسكوت عنه فيهما، ومما لا يخالف القواعد العامة المقررة.

٢ ــ إنصافه رحمه الله لأولئك «العارفين» حيث لم يرد كل ما جاء عنهم؛ لما أُثر عنهم من بدع ومخالفات في السلوك أو القول، بل أخذ ما لديهم من الحق، وطرح ضده. وهذا هو العدل؛ لأن الحكمة

(١) لطائف المعارف، ص ٥١٢.

هي ضالته أنى وجدها أخذها. ويجب ألاَّ يسلك هذا المنحى الدقيق إلاَّ أولو العلم الراسخون في الدين من أمثال الحافظ ابن رجب وابن القيم..؛ لأنه مسلك وعر ودحض مزلّة، ربما يُجلب فيه من الشر الذي لا يعرفه المنتقي من كلامهم أشد من الخير المنشود، وعلى مثل هذا تنزل قاعدة: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح».

٣ ـ أمر ثالث هو ملاحظة تعقب الحافظ ابن رجب لأغاليط المنحرفين من الزهّاد، وغلاة المتصوفة، أو متصوفة أهل البدع والزندقة[١]، كنحو المفرقين بين الحقيقة والشريعة، والرافعين التكاليف الشرعية عنهم أو عن غيرهم.

قال رحمه الله: «ومما أحدث من العلوم، والكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب، وتوابع ذلك بمجرد الرأي، والذوق، أو الكشف وفيه حظر عظيم.

وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره.

وكان أبو سليمان يقول: إنه لتمر بـي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلاَّ بشاهدين عدلين: الكتاب والسنَّة.

وقال الجنيد: عِلْمُنا هذا مقيد بالكتاب والسنَّة، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في علمنا هذا.

وقد اتسع الخرق في هذا الباب، ودخل فيه قوم إلى أنواع الزندقة والنفاق، ودعوى أن أولياء الله أفضل من الأنبياء، أو أنهم مستغنون

(١) كما جاء في كتابه «فضل علم السلف على الخلف»، ص ٦٧، فانظره لزامًا.

عنهم، وإلى التنقص بما جاءت به الرسل من الشرائع[1]، وإلى دعوى الحلول والاتحاد، أو القول بوحدة الوجود، وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان، كدعوى الإباحة، وحل محظورات الشرائع.

وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين في شيء، فبعضها زعموا أنه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص.

وبعضها زعموا أنه يراد لرياضة النفوس كعشق الصور المحرمة ونظرها.

وبعضها زعموا أنه لكسر النفوس أو التواضع، كشهوة اللباس، و غير ذلك مما لم تأت به الشريعة، وبعضها يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، كالغناء والنظر المحرم، وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا...»[2]. اهـ.

هذا، ومن نماذج أقواله رحمه الله التي ترسم لنا منهجه الحقيقي في الزهد الذي ربما يسمى «تصوفًا معتدلاً» على سبيل التجوز:

قوله في كتابه «البشارة العظمى للمؤمن»: «... فأما ما يجدونه من آثار الجنة فمما يتجلى لقلوب المؤمنين من آثار نور الإيمان، وتجلي الغيب لقلوب المؤمنين، كالشهادة لقلوبهم في مقام الإحسان؛ فربما تجلت الجنة، أو بعضها، أو بعض ما فيها، لقلوبهم أحيانًا حتى يرونها كالعيان.

---

(١) كما يقوله غلاتهم مثل الحلاج وابن عربي الطائي وابن الفارض، وصوفية الفلاسفة كابن سبعين.

(٢) من «فضل علم السلف على الخلف»، ص ٤٤ ــ ٤٥.

وربما استنشقوا من روائحها، كما قال أنس بن النضر يوم أحد: والله إني لأجد ريح الجنة من قبل أحد. . . »[١]. اهـ.

ـ وقال في شرح وصية النّبـي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما وهو غلام رديفه على الدابة: «. . . ومتى حصل هذا التعرّف الخاص للعبد، حصل للعبد معرفة خاصة بربه توجب له الأنس به والحياء منه؛ وهذه معرفة خاصة، غير معرفة المؤمنين العامة.

ومدار العارفين كلهم على هذه المعرفة، وهذا التعرّف، وإشاراتهم تومىء إلى هذا.

سمع أبو سليمان ـ هو عبد الرحمن الداراني (٢١٥هـ) ـ رجلاً يقول: سهرت البارحة في ذكر النساء، فقال: ويحك!، أما تستحي منه يراك ساهرًا في ذكر غيره؟ ولكن كيف تستحي مما لا تعرف؟!»[٢]. اهـ.

ـ وقال أيضًا في كتابه «استنشاق نسيم الأنس» في مقدمته: «الحمد لله الذي فتح قلوب أحبائه من فج محبته، وشرح صدور أوليائه بنور معرفته، فأشرق عليهم النور ولاح، أحياهم بين رجائه وخشيته، وغذاهم بولايته ومحبته، فَلَاحَ لهم فيه من السرور والأفراح، فسبحان من ذكره قوت القلوب وقرة العيون وسرور النفوس، وروح الحياة، وحياة الأرواح. . . »[٣].

---

(١) من كتابه «البشارة العظمى للمؤمن بأن حظه من النار الحمى»، (مخطوط)، ص ١٨١.

(٢) من كتابه «نور الاقتباس من مشكاة وصية النبـي ﷺ لابن عباس»، ص ٢٤.

(٣) من كتابه «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس»، (مخطوط)، ص ٨٤.

هذا المنهج يقارب في الحقيقة منهج ابن القيم رحمهما الله في بعض مصنفاته كالفوائد، والجواب الكافي، وحادي الأرواح، وروضة المحبين في مواضع فيه، ومن هذا وغيره[1] أستطيع القول إن تصوّف الحافظ ابن رجب ــ إن صحت تسميته كذلك ــ من التصوّف المعتدل، والزهد المقبول عند السلف الصالح، وهوالخلي عن البدع والشطحات أو الانحرافات في الأقوال والأعمال.

ومن التصوف العذري، وهو البريء من شطحات وبدع المتصوفة، وهو في الحقيقة زهد وورع المتقدمين، ما أشار إليه ابن القيم في النونية بقوله ص ٢٦١:

أهلُ الحديث جميعُهم وأئمةُ الـ ... ـفتوى وأهلُ حقائق العرفان
العارفون بربهم ونبيِّهم ... ومراتب الأعمال في الرجحان
صوفيةٌ سنيةٌ نبويةٌ ... ليسوا أولي شطح ولا هذيان». اهـ

* * *

(١) النماذج على ذلك كثيرة مبثوثة في كتبه: «جامع العلوم والحكم»، و «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف»، و «التخويف من النار»، ص ٨، و «شرح حديث عمار بن ياسر»، ص ٤٣ ــ ٤٧، و «نور الاقتباس»، ص ٤٢، ٤٥، ٧٨، و «اختيار الأولى»، ص ١١٥، ١٢١، و «سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز»، ص ٣ وما بعدها، و «كشف الكربة»، ص ٢٨، ٢٩، و «المحجة»، ص ٧٨ وما بعدها. وفي أواخر رسائله عامة، فإنها لا تخلو من تلك الإشارات اللطيفة.